## الفصل الخامس

# الشعراء الكُتاب الثلاثة

• هذا الفصل خاص بهؤلاء الأدباء الذين نبغوا في الشعر والكتابة، وكانت وفاتهم بهذا الترتيب الزمني..

## حفني ناصف

في سنة 1914 ميلادية أحالت وزارة المعارف إلى حفني ناصف تطبيق رسم المصحف الشريف الذي طبعته على رسم مصحف الإمام عثمان بن عفان، وعاونه في هذا العمل المرحوم الشيخ أحمد الإسكندري، والشيخ مصطفى العناني. وفي أثناء ذلك بلغ الستين من عمره، فأحيل إلى المعاش مع بقاء هذه المهمة مسندة إليه وإلى زميليه، وقبل أن يحل ميعاد اعتزاله وظيفة المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف بعشرين يومًا كتب هذه الأبيات، وكأنه كان يحس في أعماق نفسه قرب نهايته، فقال:

بـــرزت فـــي سـحـر الـبـيـا ن وشـــاب فـيـه مـفـرقـي
وقـضـيـت عـمـري فـي الـبـلا غـة سـابـقًـا لـم ألـحـق
وخـدمـت ديـــوان الـمـعـا رف مـخـلـصًـا بـتـفـوق
عـشـرون يـومًـا قـد بقيـ ـين وبـعـدهـا لا نلتقي
فـتـبـلـغـي يـا نـفـس بـالـمـ ـفـروض لـلـمـسـتـرزق
فـات الـكـثـيـر مـن الـحـيـا ة وقـل مـنـهـا مـا بـقـي

وكان حفني بك أحد العلماء والأدباء الستة الذين وقفوا سنة 1905م على قبر الإمام الشيخ محمد عبده يوم وفاته يرثونه، وهم: الشيخ أحمد أبو خطوة، وحسن عاصم باشا، وحسن عبد الرازق باشا الكبير، وقاسم أمين بك، وحفني ناصف، وحافظ إبراهيم. وقد اتفق أن مات الأربعة الأولون بهذا الترتيب. ولاحظ حفني ناصف ذلك يومًا، وكان قد مرض حافظ إبراهيم، وخاف الموت على نفسه، فبعث إليه حفني يطمئنه بهذه الأبيات:

أتـذكـر إذ كنا على القبر ستة نـعـدد آثـار الإمـام ونـنـدب
وقفنا بترتيب وقـد دب بيننا ممات على وفق الـرثـاء مرتب
أبـو خطوة ولـيّ وقـفـاه عاصم وجاء لعبد الرازق الموت يطلب
فلبىَّ وغابت بعده شمس قاسم وعما قليل نجم محياي يغرب
فلا تخش هلكًا ما حييت وإن أمت فـمـا أنـت إلا خـائـف تترقب
فخاطر وقع تحت القطار ولا تخف ونم تحت بيت الوقف وهو مخرب
وخـض لجج الهيجاء أعـزل آمنًا فـإن المنايا عنك تنأى وتهرب

***

ولما مات جرجي بك زيدان في أوائل الحرب العالمية الأولى، رثاه حفني بك ناصف بمرثية ذكر فيها فواجع الموت في الحرب، ووصف هذه الحرب الحديثة وصفًا دقيقًا، بل وصفًا يدل على سعة اللغة العربية، وسهولة تطورها مع تطور العصور متى



obeikan.com

كان الكاتب أو الشاعر متمكنًا من لغته، قديرًا على الإفصاح والتعبير عن كل غرض من الأغراض قال:

تعال فأرخ للأنام حوادثًا ... تشيب لها الولدان هولًا وتهرم
وأرهف يراعًا للكتابة ماضيًا ... فقد جاء عصر بالحوادث مفعم
لئن كان ما أرخت في زمن مضى ... عظيمًا، فما نستقبل اليوم أعظم
مدافع تستك المسامع دونها ... وتخرج من أفواههن جهنم
إذا فغرت أفواهها لكريهة ... تدك الرواسي، والحصون تحطم
وسفن تبارت في المسير أراقمًا ... إذا زال منها أرقم صال أرقم
إذا أنساب منها بضعة نحو معقل ... فلا شيء مما ينفث الموت يعصم
وغواصة كالحوت تسبح خفية ... تطيح بمرماها سفائن عوم
وطيارة لا يبلغ النسر شأوها ... تدل على جيش العدو وترجم
فتنقض منها كالصواعق تارة ... كرات، وأحيانًا تسدد أسهم
وأنبوبة تنساب منها سوائل ... ترد هواءالجو يعمي ويبكم
متى فارقت أنبوبها صرن صرصرًا ... إذا اشتم منها القوم فالقوم جثم
ففي الجو تصعاق، وفي البحر مارج ... وفي البر أعضاء تطير، ومعصم
وفي كل ناد رنة وتحسر ... وفي كل دار أينما سرت مأتم
فياويح شبان تخوض غمارها ... ويا ويل شبان عن الموت أحجموا
لك الحق فانعم حيث أنت مع الألى ... تحب، وخيم بينهم حيث خيموا
وفاخر بدار ليس فيها تباغض ... ونافس بحكم ليس فيه تحكم

قال تلك الأبيات حفني بك قبل أن يموت بخمس سنوات، وكان منذ أحيل إلى المعاش متشائمًا لا يرتاح إلى الحياة ولا يطمئن إليها، ويشعر بقرب أجله، وقبل أن يموت بنحو عام أصيب بشلل جزئي فزاد تشاؤمه، وعز رجاؤه في حياة قضاها في



obeikan.com

جهاد وعناء، وأيقن أن الموت مقبل عليه، وأن ما بقي له من دنياه لا يتجاوزه بضعة أشهر أو أسابيع، وكتب وهو على فراشه هذه الأبيات:

أتقضي معي ان حان حيني تجاربي ... وما نلتها إلا بطول عنائي

ويحزنني ألا أرى لي حيلة ... لإعطائها من يستحق عطائي

إذا ورث الجهال أبناءهم غنى ... وجاهًا، فما أشقى بني الحكماء

وشاء الله أن يخفف عنه هذا الشلل، وأن يتماثل للشفاء، وأن يعود إلى مراجعة المصحف الشريف الذي تطبعه وزارة المعارف على رسم مصحف عثمان بن عفان.

وبينما هو بين الأمل واليأس: الأمل في أن يعيش بضعة أعوام فوق الخامسة والستين حتى يتم بعض مشروعاته العلمية والأدبية، واليأس من حياة أصابته في نجله الكبير الذي سيق إلى السجن بين شباب الثورة الوطنية.

بينما هو كذلك إذ بنبراس حياته الساطع، وبهجة نفسه الباسمة، وزهرة قلبه الناضرة «باحثة البادية» تشكو الداء، فيهلع «الوالد»، ويرتاع لهذه الشكوى ارتياعًا لم يعهده من قبل، وكأنه أحس الخطر، ورأى بعاطفة الأبوة التي تكشف في بعض الأحيان أستار الغيب أن مرضها هذا هو مرض الموت، وإن مصابه ومصاب الشرق العربي فيها ستحل فجيعته عما قريب، وإنه قدر عليه وهو الوالد الحنون أن يفجع في أعز أبنائه إليه، وأكرمهم لديه، وأكثرهم عطفًا في شيخوخته عليه، وأن يشهد هذه الكارثة التي تهد كيان الآباء، وأن يحمل آلام هذا الجرح الذي لا يندمل إلا بالموت.

لكأن الأيام نقمت من «حفني» فضله على اللغة العربية، ونبوغه في الكتابة والشعر، وما وهب من ذخر ثمين، وفخر كبير في كريمته ملك «باحثة البادية» التي كان لصوتها صدى في أرجاء الشرق، فأرادت أن تديل منه، فأصابته في شيخوخته بسجن ابنه، ثم كانت الطامة الكبرى بمرض كريمته النابغة. عادت صحته إلى الضعف، وشعر بالمرض يرتد إليه، ولكنه استقوى، ونشط إلى علاج ابنته، ومنى نفسه، واستهان بصحته، وأتعب جسمه لتوفير راحتها، وأجهد قلبه لتعجيل الشفاء إليها.

فعل ما في استطاعة أب رحيم رقيق العاطفة أن يفعله، لكن ماذا تجدي الرحمة أمام قسوة القدر، وماذا تفيد الرقة في خشونة الخطب المدلهم، والمصاب الفاجع؟

ساءت صحة «ملك»، وسارت إلى الخطر، ثم ماتت، فكان موتها نذير موته، وكان

مصابها داعية مصابه، فلم يقو على حمل الخطب الشديد، واعتكف في بيته مكلوم النفس، مسلوب القلب، محطم الأعصاب، زاهدًا في الحياة، ذاهلًا عن كل شيء إلا عن ذكر «ملك»، والتلهف عليها آناء الليل وأطراف النهار.

وكانت حفلة تأبينها في الجامعة المصرية القديمة، ورأس الحفلة إسماعيل صبري باشا، وذهب حفني بك محمولًا إليها، لفرط ما أصابه من ضعف وهم ومرض، واستمع إلى كلمات المؤبنين في حزن وألم، حتى إذا جاء حافظ إبراهيم إلى قوله:

وتركت شيخك لا يعي هل غاب زيد أو حضر
ثملاً ترنحه الهمو م إذا تحامل أو خطر
كالفرع هزته العوا صف فالتوى ثم انكسر
أو كالبناء يريد أن ينقض من وقع الخور
قد زعزعته يد القضا ء وزلزلته يد القدر

حتى إذا جاء حافظ إلى هذا القول في رثائها، بكى حفني بك، وأشفق عليه الحاضرون من شدة اللوعة والألم العظيم، ثم آب بعد انتهاء الحفلة إلى بيته، ودخل مضجعه وأخفى رأسه تحت الغطاء وبكى بكاء مرًا، وأخذ ينشد بعض الأبيات بنشيج مؤثر، ثم فقد رشده بضعة أيام، وكان يوم الثلاثاء 26 فبراير عام 1919 فأسلم روحه إلى بارئها، ولحق بكريمته كأنهما كانا على ميعاد.

كانت الثورة الوطنية وقتئذ متأججة، فلم تتح فرصة لتأبينه، وبقي بلا تأبين حتى كانت ذكرى الأستاذ الإمام التي أنشد فيها حافظ قصيدته البائية العصماء في الحفلة التي أقيمت بالجامعة المصرية سنة 1922، فذكر حفني فيها حين قال:

هدأت نيران حزني هدأة وانطوى «حفني» فعادت للشبوب
فتذكرت به يوم انطوى صادق العزمة كشاف الكروب

ثم مضت السنون وأنشئت محطة الإذاعة الحكومية فأحيت له في عهد الثورة المجيدة ذكرى حسنة تحدث فيها بفضله ومناقبه طائفة من أعلام العلم والأدب.

# مصطفى لطفي المنفلوطي

... وصاح بلهجة صعيد مصر: «آه.. آه.. يا بوي..!».

ثم التفت إلى صديقه، وابتسم ولم يتكلم، وكانت هذه الآهة آخر كلماته، وختام آهاته في الحياة، وكأنما كتب عليه أن يختم حياته بالتأوه والأنين، كما عاش متأوهًا من مآسي الوجود، شاديًا بأنات البائسين، وزفرات المتوجعين.

وأدار «السيد مصطفى» بعد هذه الآهة وجهه إلى الحائط، وهو على فراشه، وكان صبح عيد الأضحى قد أشرقت شمسه، ودبت اليقظة في الأحياء، ولكن الموت كان يدب في هذا الوقت إلى جسم الأديب في هدوء وخشوع، فلم يتحرك فيه طرف، ولم تنتفض منه يد، ولم تنطفئ لوجهه بهجة، ولم تذبل له عينان، ولم تلم به وحشة، أو يخيم عليه من الفناء ظلام.

بل سكن سكونًا بليغًا كسكون الساعة عند نهايتها، وذابت أنوار نفسه في ساحة الأبدية، كما تذوب الأشعة في الجو عند غايتها، واستمر صديقه الأستاذ محمد حسني الجالس بجواره لا يدري أن مصطفى قد بارح عالم البؤساء إلى عالم السعداء، وارتفعت روحه مطمئنة إلى نعيم الخلد، بعدما عانت آلام الأرض، فناداه:

- يا سيد مصطفى!

فلم يجب النداء، فعاد يناديه:

- يا سيد مصطفى.. يا سيد مصطفى..

فلم يسمع الدعوة، ولم يجب النداء.

***

واطمأن السيد مصطفى للموت، وما كان يطمئن إليه يومًا في حياته، ولا يأنس ساعة بذكره - على الرغم من ذمه للحياة وتصويره لجوانبها السوداء - فإذا ذكر المرض أو الموت، أجفل وفزع من ذكرهما، وضرع إلى الله أن يؤخر يومه، وينسأ في أجله، ويديم له الصحة، ويسبغ عليه العافية.

وما كان فزعه من المرض أو الموت لجبن في نفسه، أو لحرص على هذه الحياة الفانية، بل كان يجهل من حظه في الآخرة ما يجعله يقف موقف المتردد الحائر، ويخشى على مستقبل أولاده الصغار خطوب الزمان، وحوادث الأيام.

وقد زاد خوفه من المرض والموت بعد الأربعين، وكأنما كان يتنبأ بنهايته حين كتب آخر مقالة في آخر جزء من النظرات بعنوان «الأربعون» قبل وفاته بتسع سنوات، فقال:

«الآن وصلت إلى قمة هرم الحياة، والآن بدأت أنحدر إلى جانبه الآخر، ولا أعلم هل أستطيع أن أهبط بهدوء وسكون، حتى أصل إلى السفح بسلام، أو أعثر في طريقي عثرة تهوي بي إلى المصرع الأخير هويًا.

«سلام عليك أيها الماضي الجميل، لقد كنت ميدانًا فسيحًا للآمال والأحلام، وكنا نطير في أجوائك البديعة الطلقة غادين رائحين، طيران الحمائم البيضاء في آفاق السماء، لا نشكو ولا نتألم، ولا نضجر ولا نسأم، بل لا نعتقد أن في العالم همومًا وآلامًا، وكان كل شيء في نظرنا جميلًا حتى الحاجة والفاقة.

«... ما أنا آسف على الموت يوم يأتيني، فالموت غاية كل حي، ولكنني أرى أمامي عالمًا مجهولًا، لا أعلم ما يكون حظي منه، وأترك ورائي أطفالًا صغارًا، لا أعلم كيف يعيشون من بعدي، ولولا ما أمامي، ومن ورائي، ما باليت أسقطت على الموت، أو سقط الموت عليَّ».

تلك هي النبوءة التي تنبأ بها «المنفلوطي» حين بلغ الأربعين، وذلك ما كان يخافه من الموت، فلولا صبية صغار، ولولا مآل مجهول، ما جزع ولا تشاءم من هذا المصير، ولا أخفى ما كان يصيبه من داء في بعض الأحيان عن أولاده وزوجته، وقد أصيب بشلل بسيط قبل وفاته بشهرين فكتم آلامه عن صحبه وأصدقائه، ولولا ثقل أصابه في لسانه عدة أيام ما علم أحد بمرضه، ولا استدعى طبيبًا لعيادته، لأنه كان لا يثق بالأطباء، ورأيه فيهم أنهم لا يغنون عن القدر، ولا يدفعون نازلة القضاء، ولعل ذلك هو السبب في عدم إسعافه من التسمم البولي الذي أصابه قبل وفاته بثلاثة أيام.

فقد كان في صحة جيدة، ونشاط تام، لا يشكو علة، ولا يتململ من ألم، وفي ليلة الجمعة السابقة لوفاته كان يأنس في منزله إلى إخوان يسامرهم ويسامرونه، ويفاكههم ويفاكهونه، ويناقشهم ويناقشونه في الأدب والموسيقى والسياسة والاجتماع، إذ كان يعقد هذه المجالس في كثير من الليالي، ويفد إليه بعض أصدقائه من الأدباء والسياسيين والموسيقيين، حتى إذا قضى سهرته معهم انصرفوا إلى بيوتهم، وانصرف هو إلى مكتبه فيبدأ عمله الأدبي في نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.

وفي الساعة الثانية عشرة من تلك الليلة انصرف أصدقاؤه كعادتهم، وبقي يتصفح بعض الكتب، وإنه لكذلك إذا به يحس بتعب في أعصابه، وضيق بسيط في تنفسه فأوى إلى فراشه، وأراد النوم، فاستحال عليه، ومكث يعاني ألمًا في الكلى، وضيقًا في الرئتين.

وأقبل صبح السبت 12 يولية سنة 1924، واستيقظ الأحياء وهو ما زال في أرقه الطويل، واستأنفوا حياة جديدة ويومًا جديدًا، واستأنف هو ألمًا ممضًا، وضيقًا شديدًا، واستمر في ذلك يومه يعاني الأهوال، ويسوقه القضاء إلى النهاية، ويحثه القدر إلى بلوغ الغاية، في عذاب أليم، وبلاء جسيم.

دعى له الطبيب، وكان احتباس البول قد سمم دمه، وانبثت جراثيمه في أنحاء جسمه، فأصيب بذبحة صدرية، فصار يتلوى على فراشه يمينًا وشمالًا، جلوسًا ونومًا.

حتى إذا جاء المساء - وكان مساء وقفة عيد الأضحى سنة 1342 الهجرية - اشتد ضيقه، وساءت حالته، ويئس طبيبه، وثقلت العلة عليه، فجعل يضع رأسه مكان قدميه، وقدميه مكان رأسه، ويئن ويتألم، ويستجير من أوجاعه، ويلتمس الشفاعة برقة أدبه،

ويرتجل الضراعة لرحمة ربه، ولم تسكن له حركة، ولم تهدأ له نفس، أو يغف له طرف، أو يستقر به مضجع.

وكان بجواره في تلك الليلة صديقه الأستاذ محمد حسني فأخذ يخفف عنه بالحديث ما يعانيه من تعب، ويهون عليه بالصبر ما يلاقيه من آلام!

وكان «السيد مصطفى» قبل ذلك بأيام قد اتفق مع صديقه المرحوم حسن أنور، وبعض إخوانه من هواة الموسيقى على أن يحضروا إليه في ليلة الثاني من عيد الأضحى بمعازفهم وأعوادهم ليحيوا تلك الليلة في التمتع بنغمات الموسيقى.

وفيما كان رحمه الله يعاني الذبحة الصدرية، ويغالب الموت، والموت يغالبه التفت إلى صديقه وقال:

- أحقًا أننا سنحيي ليلة الثاني من العيد مع أنور وإخوان أنور؟

قال صديقه: «نعم... وستكون في صحة جيدة».

فهز السيد مصطفى رأسه، وقال: «.. في صحة جيدة!.. أتمنى..».

ثم سكت وانتابته الذبحة، وألحت في ضيقها، وتفاقمت آلامها، فكان يصارعها وتصارعه، ويجالدها وتجالده، حتى إذا ضعفت مقاومته، وانهارت قوته، استسلم للموت، وصاح بلهجة أهل صعيد مصر:

«آه.. آه.. يا بوي..!».

ثم التفت إلى صديقه وابتسم، ولم يتكلم. ودعاه صديقه مرارًا، فلم يسمع الدعوة ولم يجب النداء، فظن أنه قد نام، فأشفق عليه من اليقظة، لأنه قضى الليلة الماضية في أرق شاق. وكف عن النداء.

وهنا دخلت سيدة عجوز من أهله لها خبرة بمثل هذا المنظر الفاجع، فنظرت إلى «السيد»، وأمسكت بيده وقالت للصديق: «أسمعك تنادي الرجل عدة مرات، وهو ميت»!

فتنبه الصديق من غشيته، وكأنما كان الموت يخادعه في صديقه، وصاح، وصاح من بالمنزل: «وا مصيبتاه..!!»، وصرخ أطفاله: «واأبتاه..!».

وبانت بالمنفلوطي المنية، فبانت عن عشاق أدبه هذه العبرة التي كان يزجيها إلى النفوس بعبراته، وتلك المتعة التي كان يهديها إلى القلوب بنظراته، وبان الأنس

الشامل الذي ظلل كل قارئ لكتبه، والخلق الكامل الذي تجلى في سيرته وأدبه، وذابت العاطفة الرقيقة التي لا تباريها رقة السلافة، والنفس السامية الصافية التي لا تحكيها خفة النسيم ولا صفاء الماء، وكانت للعاشقين بردًا وسلامًا، وللبائسين عطفًا وحنانًا، وليائسين عزاء وسلوانًا.

رحل ذلك كله فيما عدا ما بقي من آثاره، وغاض ذلك النبع الفياض، وكان منهلًا عذبًا لكل قارئ، ومواردًا حلوًا لكل متأدب، وانطفأت تلك الجذوة التي كانت تتقد أسى وألمًا للمساكين، وتلتهب حزنًا ولوعة للمحبين، ورقد هذا القلم الذي طالما سهر الليالي، فكم من عبرة أسالها، وكم من رأفة استثارها، وكم من نظرة دبجها، وكم من رواية جال فيها ساجعًا بين أفنان البيان، يقطر ذوبًا من القلب، وصوبًا من النفس، وفيضًا من الجمال.

طوى الموت ما بين المنفلوطي وبين الناس على أثر الاعتداء على الزعيم سعد زغلول، فلم تذكره أفواه المؤبنين، ولم يشيعه آلاف المشيعين ممن يعجبون بأدبه، ويشيدون بنبوغه وفضله.

**اخترت يوم الهول يوم وداع ... ونعاك في عصف الرياح الناعي**

**هتف النعاة ضحى فأوصد دونهم ... جرح الرئيس منافذ الأسماع**

**من مات في فزع القيامة لم يجد ... قدمًا تشيع أو حفاوة ساعي**

لكأن هذه الحمائم الساجعة في رياضها، وهذه الأزاهر الباسمة على أفنانها، وهذه الآرام الراتعة في فيافيها، وهذا النسيم المختال بخطراته، المدل بلثماته، وقد سمعت بموته، وتحطيم قيثارته، فوجمت الحمائم، وذوت الأزاهر، واعتقلت الفجيعة فيه الآرام، فسقطت شجية بخطبه في يوم شغل الناس فيه بإصابة «سعد» فنسوا كل شيء حتى هذا المصاب العظيم، واستهانوا بكل خطب حتى هذا الخطب الأدبي الجسيم، فحمل الهول عنهم تلك الطيور الوفية التي طالما ناجاها، وتلك الأزهار الندية التي طالما استوحاها، وتلك الظباء الرشيقة الآسرة التي تحاكي أسلوبه في رشاقته وسحره وأسره للقلوب.

وقد قال في آخر نظراته يودع الشباب بل يودع الحياة:

«ليكن ما أراده الله، أما ما أمامي، فالله يعلم إني ما ألممت بمعصية إلا ترددت

فيها قبل الإلمام بها، ثم ندمت عليها بعد وقوعها، ولا شككت يومًا من الأيام في آيات الله وكتبه، ولا في ملائكته ورسله، ولا في قضائه وقدره، ولا أذعنت لسلطان غير سلطانه، ولعظمة غير عظمته، وما أحسبه يحاسبني حسابًا عسيرًا على ما فرطت في جنبه بعد ذلك.

«وأما من ورائي، فالله الذي يتولى السائمة في مرتعها، والقطاة في أفحوصها، والعصفور في عشه، والفرخ في وكره، سيتولى هؤلاء الأطفال المساكين، وسيبسط عليهم ظله ورحمته وإحسانه.

«وداعًا أيها الشباب، فقد ودعت بوداعك الحياة، وما الحياة إلا تلك الخفقات التي يخفقها القلب في مطلع العمر، فإذا هدأت، فقد هدأ كل شيء، وانقضى كل شيء.

**«أيا عهد الشباب وكنت تندي على أفياء سرحتك السلام»**

# خليل مطران

سألت المرحوم خليل مطران يومًا: «ما هي أمنيتك في الحياة؟»، فقال: «الحياة إلى الساعة الأخيرة في العمل، والموت متى جاءت ساعته بلا وجل».

وقد عاش خليل غني النفس، فقير المال. وكان مثلًا غريبًا في القناعة والعفة والإيثار لغيره.. ونذكر أنه في سنة 1940، قطعت الحكومة إعانة النقابة الزراعية، فكتب تقريرًا عن حالتها اقترح فيه تخفيض ميزانيتها وفي مقدمة ذلك تخفيض مرتبه، ولم يأخذ مرتبًا منها، بل كان يصرف على شئونها من جيبه الخاص حتى أدانها بمبلغ ألف وتسعمائة جنيه، لم تدفعه النقابة له إلا قبل وفاته بثلاثة أشهر.

ولقيته بعد ذلك في النادي الشرقي. وكان داء النقرس قد أثر في مفاصله وأعصابه «بعد عرق النساء» الذي أصيب به منذ عامين، فجلسنا نتحدث عن الحياة والناس، فقال لي:

إن سنة 1947، كانت شؤمًا عليَّ فقد مرضت فيها، وفقدت أربعة من أقاربي، وأنا الآن نصفي حي ونصفي ميت، وأشار إلى فخذيه لأنهما ضعفتا حتى لا تكادان تحملانه، وأخذ يتمثل بأغنية بدوية وهي:

«نصحتك يا جلب (يا قلب) ما جبلت (ما قبلت) نصحي

سكران بدا (بداء) الهوى، ما فضلت نصحي»

«وجسمي صار نص ميت ونص حي ونصف الحي باقي للعذاب»

وفي فبراير عام 1948 سافرت لأعمال صحفية، وتغيبت عن القاهرة مدة، فلما قابلته في النادي الشرقي، وكان ضعيفًا بسبب مرضه سلمني رقعة كتب فيها بخطه هذه الأبيات الثلاثة وقال إني كتبتها لأرسلها إليك ولكني أحمد الله إني لقيتك لأسلمها لك، وكانت آخر شعره، وهي:

يا صديقي نأيت عني ولا أستـ ـطيع سعيًا وتشتهي النفس قربك

أنـا أشـكـو إلـيـك حـاجـات قوم شغلت عقلك الكبير وقلبك

إن تـجـد سـاعـة بـهـا لـك روح من عناء الجهاد فاذكر محبك

وفي أغسطس من هذا العام كنت ببورسعيد، فبعثت إليه خطابًا للسؤال عن صحته، فأجابني بخطاب قال فيه: «أنا ما زلت ضعيفًا جدًا، وأظن أنهم سينقلونني إلى مينا هاوس في هذا الأسبوع لعل هواء الصحراء الجاف يعينني على الشفاء من آلام أعصابي، وهي شديدة..» وقد انتقل إلى مينا هاوس، ومكث مدة ليست بالطويلة، ولكنها زادته آلامًا، وحركت مرضه الدفين، مرض «الربو» فاعتزم أن يعود من مينا هاوس إلى مسكنه بالتوفيقية وهو يعاني هذا المرض الأليم، ألم مرض النقرس، وزرته في ذلك الحين فوجدته في حالة شديدة من الضعف والإعياء،ولكن كان كما نعهده، يقظًا سليم الفكر، ولما سألته عن حاله فقال:

«عـشـنـا وشـفـنـا سـنـيـن ومـن يعيش يـشـوف العجب»

«شـفـنـا الـضـنـى والأنـيـن جـعـلـنـاه لـروحـنـا طـرب»

وقال: «أنا لا أطمع في العيش ولا أريده إلا لأرعى هؤلاء الصغار وهو يعني أولاد أخيه» ولم أسمعه يشكو أو يتأوه من مرضه، بل كان صابرًا حامدًا قوي النفس، قوي الإيمان، ولكنه كان يأسى في بعض الأحيان لانقطاع إخوانه عنه في مرضه، فلم يكن يزروه إلا القليلون. ومع أنه كان يلتمس المعاذير لهم، ولكني سمعته في إحدى الزيارات يردد هذين البيتين من نظمه:

خدعت بمن عايشت أيام موردي ... لهم مورد، والمحفل الضخم محفلي

فلما انقضى ما كان للناس مأملًا ... إذا يمموني خاب في الناس مأملي

ولقد شاء أن يوقع على وتره الأخير لحن الرضى، وسكينة النفس، فنظم في آخر ما نظم قصيدة سماها: «الشاعر» يصف فيها نفسه وفلسفته ونهاية حياته، قال:

ماذا يريد الشعر مني ... أخنى عليه علو سني

هل كان ما ذهبت به الأ ... يام من أدبي وفني

أحسنت ظني والليا ... لي لم توافق حسن ظني

ورجعت من سوق عرضـ ... ـت بضاعتي فيها بغبن

أفكان ذلك ذنبها ... أم كان ذنبي لا تسلني

خمدت بي النار التي ... رفعت بعين العصر شأني

هي شعلة كانت تنـ ... ـير قريحتي وتنير ذهني

أيام لي طرب وقلـ ... ـبي موقع السهم المرن

لا تندبني للعظا ... ئم بعدها لا تندبني

ولي الربيع وجف عو ... دي وانتهى عهد التغني

وعدمت لذات الرؤى ... وعدمت لذات التمني

إني ختمت العيش في ... وادي المخيلة أو كأني

فإذا بدت لك همة ... من دائب يشقى ويبني

فعذيره خوف التشـ ... ـبه بالرحى من غير طحني

ويكد كد النحل وهـ ... ـي لغيرها تسعى وتجني

إن الحقيقة حين نبـ ... ـلغها لتكفينا وتغنى

فيها الجلال بكل معـ ... ـناه، وفيها كل حسن

فإذا تولينا، فهل ... أسماؤنا عنا ستغني

لـو لـم يـكـن فـي الـذكـر للـ ـــأعـقـاب نـفـع لـم يشقني
أمـا الـجـزاء، فـإنـني استـ ـــوفـيـت مـنـه فـوق وزنـي

هذا ما وقعه الخليل على وتره الأخير، قبل أن يحطم الموت قيثارته، وقبل أن يسكت فيها حلاوة الأنغام، وهي صورة لنفسه في شيخوخته وما كان يشعر به نحو الماضي، والحاضر، والمستقبل..

***

واشتد المرض على شاعرنا الكبير قبل وفاته بأسبوعين، واقتربت نهايته فلم يفقد انتباهه ويقظة نفسه حتى كان قبيل وفاته بثلاثة أيام فبدأ يرحل بخياله إلى العالم الآخر.. فكان يخيَّل إليه أن أمه، وأخاه المرحوم جورج، وملاك من السماء يزورونه في غرفته، فيرحب بهم، ويقول:

- أهلًا.. وسهلًا.

ويلتفت إلى من حوله وإلى ممرضته، ويقول:

- أوقدوا الأنوار.. إن الضيوف الكرام قد حضروا.

ثم يتنبه، وينظر إلى من بجواره ويقول: «إني أرى شيئًا جميلًا.. إني أرى العالم الآخر ما أحلاه.. إنه حقًا جميل.. ما كنت أدري أنه بهذا النعيم..».

وقبل وفاته بأربعة أيام أصيبت زوجة أخيه بأزمة في الكبد فلم يخبروه، فكانت في إحدى الغرف تتأوه وتتألم، فكان يسمع تأوهها، ويقول:

- من الذي يتأوه، ولا أستطيع تلبيته.. إنها أول مرة لا ألبي فيها متألمًا.

ولما اشتدت سكرات الموت طلب ماء، فأحضروه وأرادوا أن يقطروه في فمه بالملعقة، فأبى إلا أن يحمل كوب الماء ويشرب، فأعانوه على ذلك حتى شرب وقد بقي محتفظًا بقواه الذهنية إلى ما قبل وفاته بساعات، ثم غاب عن عالم الفناء ليرحل إلى عالم الخلود والبقاء.